جمهورية العراق
وزارة الثقافة
دار المأمون للترجمة والنشر

الحياة اليومية في العراق القديم

(بلاد بابل وآشور)

دار المأمون

الحياة اليومية في العراق القديم
(بلاد بابل وآشور)

تأليف

الدكتور هاري و. ف. ساگز

ترجمة

كاظم سعد الدين

دار المأمون للترجمة والنشر

بغداد - ٢٠١٠

الحياة اليومية في العراق القديم

Everyday Life in BABYLONIA & ASSYRIA

د. هاري و. ف. ساگز

H. W. F. SAGGS

وزارة الثقافة
دار المأمون للترجمة والنشر
ص. ب. ٨١٠٧
البريد الإليكتروني: dar-mamoon@yahoo.com
حقوق الطبع والنشر محفوظة/ الطبعة الثانية
جمهورية العراق ــ بغداد
مترجم عن الأنكليزية

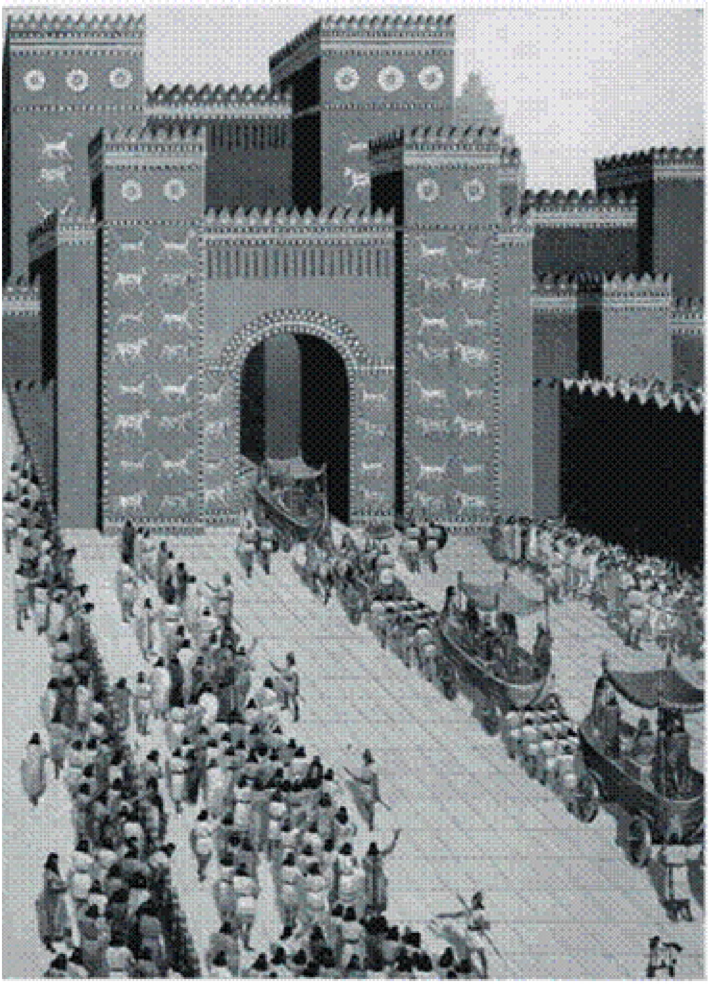

١ - بابل من امام باب عشتار.

المحتويات

كلمة الناشر.......... ٩

تعريف بالكاتب والكتاب ١١

تمهيد.......... ١٣

الفصل الأول

حضارة منسية.......... ١٥

الفصل الثاني

نشوء ممالك وسقوطها.......... ٤٥

الفصل الثالث

الحياة في بلاط أموري.......... ٧٧

الفصل الرابع

الكاتب في مجتمع بابلي.......... ١٠٥

الفصل الخامس

أدارة إمبراطورية.......... ١٥٣

الفصل السادس

الحرف والصناعات القديمة.......... ١٩٣

الفصل السابع

القانون.. ٢١٥

الفصل الثامن

بابل في عهد نبوخذ نصر.......................... ٢٥٣

الفصـــــل التـــاســـع

الــــديــن............................ ٢٩٧

كلمة الناشر

يسعى هذا الكتاب الى إلقاء الضوء على حضارة بابل وآشور التي ظلت منجزاتها الشاخصة طي النسيان قروناً طويلة من الزمان. واذا كانت الكتب والمؤلفات المعنية بهذه الحضارة ركَّزت في اسس الحضارة ومعالمها وما تبقى لأجيالنا الراهنة من آثارها المعروفة اليوم، فان هذا الكتاب الذي تتبنى دار المأمون للترجمة والنشر اصداره بطبعة ثانية بعد نفاد طبعته الاولى الصادرة سنة ٢٠٠٠ يحاول إستغوار الحياة اليومية التي كان يحياها سكان بابل وآشور ويقدم شروحاً مهمة عن قيمة الحياة في البلاط وفي المجتمع البابلي، كما يقدم للقارئ صورة اجمالية عن ادارة الامبراطورية الاشورية والصناعات والحرف القديمة، ولاينسى المؤلف، وهو العالم الآثاري المعروف الذي اشتغل حيناً من الزمن في البعثة التنقيبية عن الآثار في العراق، وخاصة في النمرود وتل الرماح، فضلاً على عمله تدريسياً في كلية الاداب بجامعة بغداد، أن يفيض في شرح التراث القانوني المتمثل اساساً بمسلة حمورابي وما دُوِّن عليها من تشريعات

شغلت الباحثين قروناً طويلة نظرا لاهتمامها، بل عملها، علـــى تنظيم شؤون الحياة اليومية في بلاد مابين النهرين.

بغداد ٢٠١٠

مؤلف الكتاب

الدكتور هاري و. ف. ساگز، استاذ اللغات السامية في كارديف وعضو ملاك مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية، جامعة لندن، كان عضوا في البعثة التنقيبية عن الاثار في العراق التي اشتغلت في النمرود وتل الرماح، واشتغل سنتين استاذا في قسم الاثار في كلية الاداب، جامعة بغداد.

وكتابه هذا "الحياة اليومية في بابل وآشور"، ١٩٦٥، هو غير كتاب جورج كونتينو بالعنوان نفسه، الذي ترجم الى العربية، انه يختلف في مادته وطريقة بحثه.

كتاب ساگز يتكون من تسعة فصول، تناول فيها تاريخ الحضارة في العراق القديم تناولاً علمياً أوضح فيه أصالة هذه الحضارة في نشوء الحكم واختراع الكتابة والمدارس وادارة شؤون الدولة والدفاع عنها. وما تداول الناس من صناعات وما احترفوا من مهن وما سنوا من شرائع وما هي معتقداتهم في

الحياة وفي الدين وغير ذلك من امور تبين عظمة هذه البلاد في الوقت الذي كان معظم البشرية يعيش حياة البهائم.

(ما بين معقوفين أي قوسين مربعين ايـــضاح او تعليـــق للمترجم.)

كاظم سعد الدين
آذار ١٩٩٩
بغداد

تمهيد

طريقة الحياة التي يتناولها هذا الكتاب ازدهـرت طـوال الفي عام من الحقبة التكوينية لتاريخ البشرية، وان مسّ كل سمة بارزة من هذا الموضوع مسا طفيفا يتطلب مجالا اوسـع ممـا تيسر لدينا. لذلك اقتصرت على مهمة اكثـر تواضـعا. ان مـا حاولت القيام به هو بسط مقدمة للموضوع بتخطيط للحياة البابلية والاشورية في نقاط دليلية شوهدت في سياق المشهد التـاريخي. ولست بحاجة الى الاشارة الى ان هذا الكتاب لـم يؤلـف الـى زملائي المحترفين، ويكون هدفي قد تحقق اذا مانجحت في اقناع بعض قرائي، من بين الكثيرين الذين يهتمون الان بالعالم القديم، ان حضارة بابل واشور ليست غريبة تماما على حضارتنا.

وعلى الرغم من انني استطعت في كثيرمن الحـالات ان اقترح مصادر للرسوم فان مسؤولية الاختيار النهائي ومعالجـة الرسوم تقع على عاتقي مؤلفاً وليس على الرسـامة الموهوبـة السيدة هيلين نكسن فيرفيلد.

ه.و.ف.ساگز

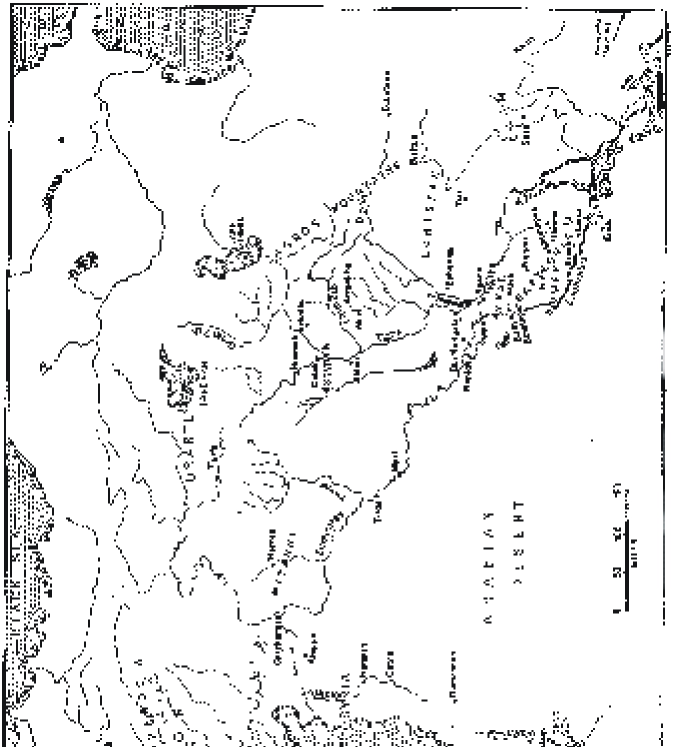

٢ - خارطة الشرق الأدنى والأوسط

الفصل الأول

حضارة منسية

ظل منجز من أعظم المنجزات البشرية، حــضارة بابــل وأشور، مطموراً، طوال اكثر من ألفي عام، وكاد يكون منسياً، تحت ارض بلاد نعرفها اليوم باسم العــراق (مــابين النهــرين قديما). وبقي شيء من الوصف عنه، لايعول على صحته، في الأدب الإغريقي، مع بعض الأقوال التوراتية، لعلها متميــزة، عن الآشوريين، وتراث أكثر التباساً وموضع شك لزمن اســبق كثيراً في ارض تدعى شنعار. وفي شنعار، بناء علــى وصــف توراتي، بني برج بابل؛ وفيها أيضا عاشــت العائلــة الوحيــدة الناجية من الطوفان العظيم، في الوقت الذي وجدت في مكــان آخر من هذه المنطقة، في بدء تــاريخ الانــسان جنــة عــدن الأسطورية.

زار بين حين وحين، سُــياح ممــن جــذبتهم الأســماء السحرية ببابل ونينوى، تلال العراق القديمة من أيام الحــروب الصليبية وما بعدها وترك بعضهم وصفاً لرحلاتهم وتخمينــاتهم،

وجلبوا إلى أوروبا أثاراً من أحجار مكتوبة وما شابه ذلك ــ من المدن القديمة. لعل خرائب نينوى الواسعة الشاخصة عبر دجلة قبالة الموصل، لم تفقد هويتها في التراث المحلي، وقد لاحظ حتى الرحالة الأوروبيون ما كانت عليه إلى أوائل القرن الثاني عشر للميلاد. ولكن موقع بابل ظل مشكوكاً فيه مدة أطول على الرغم من أن الرحالة لم يترددوا في تشخيص مبنى أو أكثر من المباني العملاقة المشيدة بالطابوق التي ما تزال شاخصة في جنوب العراق مع برج بابل السيئ الطالع. ولم يعرف بالضبط إلا في القرن السابع عشر.

كان أول من قام بفحص أكثر علمية لتلال العراق القديمة كلوديوس جيمز رچ الشاب الانكليزي الذي لم يكن كريم المحتد، ولكنه في الحادية والعشرين ارتقى بجدارته الخاصة، ولا سيما في قابليته اللغوية، لكي يكون المقيم لشركة الهند الشرقية في بغداد، وهو مركز مسؤول جدير بالاعتبار والأبهة، في سنة ١٨١١ انتهز فرصة زيارة بابل في غضون عشرة أيام مثمرة ليقوم بمسح الموقع العظيم كله، واستخدم عمالاً ليتولوا بعض التنقيبات غير البارعة. إن جمع الطابوق المكتوب والرقم الطينية المسمارية والأختام الاسطوانية مع مذكرات "رچ" في أثار بابل المنشورة سنة ١٨١٢ يمكن أن تعد علامة لبداية تاريخ علم

الأشوريات، قام "رچ" بعد سنوات بزيارة أخرى ونشر مذكرات ثانية عن بابل في١٨١٨. وترد إشارة إلى الهزة التي إثارتها المكتشفات الجديدة في أبيات لبايرون في قصيدته "دون جوان " حيث يتكلم الشاعر على

بعض الكفرة[١] الذين، بسبب
عدم قدرتهم، لم يجدوا موقع
بابل نفسها، أو لأنهم لا يريدون،

ومع ذلك فان كلوديوس رچ حصل على بعض الطابوق وكتب مؤخراً مذكراته عنها في كتابين

وعند موت "رچ" قبل أوانه بالكوليرا في ١٨٢١ بيعت مجموعته من الآثار إلى المتحف البريطاني حيث أصبحت المادة المسمارية أساس مجموعة الأشوريات العظيمة فيه، وتعد الآن من أنفس المجموعات في العالم.

وما خلا استطلاع واحد في بابل سنة ١٨٢٧، لم يجر بعد عمل "رچ" الرائد مزيد من التنقيبات في العراق حتى أربعينيات

---

[١] يقصد بايرون بالكفرة العرب والمسلمين وهو كثيراً ما يتهجم عليهم في قصائده.

القرن التاسع عشر (١٨٤٠) على الرغم من أن الرحالة استمروا في زياراتهم وتسجيل انطباعاتهم عن التلال القديمة في البلاد.

وتشير سنة ١٨٤٠ الى وصول شاب آخر أول مرة إلى العراق وضع في غضون احد عشر عاماً الجانب الاركولوجي (الاثاري) لعلم في الأشوريات الجديد على أساس سليم. ذلك الشاب، هنري أوستن لايارد، كان في الثالثة والعشرين. اخفق لايارد في سد نقص في شركة محترمة لعمه في المحاماة، فتوجه إلى فرصة عمل وعدوه بها في سيلان. تأثر لايارد تأثراً عميقاً بتلال العراق القديمة وسحرته حياة الشرق الأدنى والأوسط ومجتمعها عموما، فلبث في تلك المنطقة أطول ما استطاع حتى ترك أخيرا هدفه الأصلي، على الرغم من قلقه من ردود فعل عمه المحتملة. اجتمعت معرفته باللغات وسحر شخصيته وذكاؤه ومثابرته وشجاعته وجلده وحبه للمغامرة لتعطيه معرفة مباشرة جديرة بالاعتبار في السياسة الشرقية، وصارت تراوده آمال في العمل في السلك الدبلوماسي الذي شعر فيه بالإحباط سنوات طويلة بسبب تصلب وزارة الخارجية على الرغم من كونه مساعداً ناجحاً بصفة شخصية للسفير البريطاني في اسطنبول. ولم يستطع السفير ان يحصل له على مركز وظيفي ولكنه قدم له عوناً شخصياً ومالياً وشجعه في

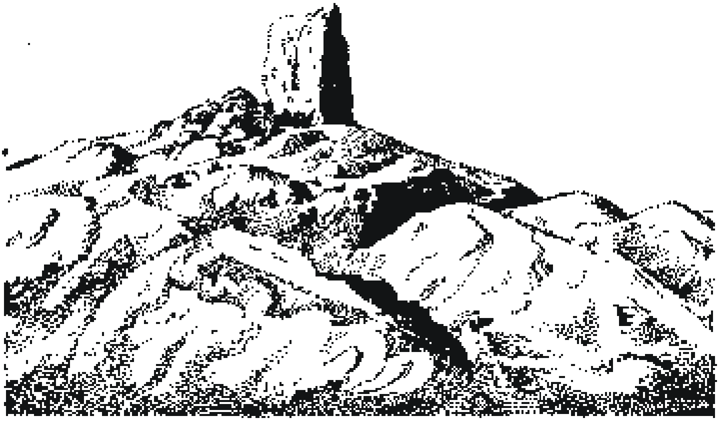

٣ ــ خرائب زقورة پورسيبيا.

١٨٤٥ على الاضطلاع بالتنقيب في نمرود، على بعد نحو عشرين ميلاً جنوب الموصل. فتغلب لايارد على العقبة الوظيفية والمصاعب المالية والعملية بفتح القصور الخفية في إحدى العواصم الأشورية، ليس نينوى (كما ظن اول الأمر) بل كالح المذكورة في سفر التكوين. وعاد إلى انكلترا ونشر وصفاً لعمله في ١٨٤٩، فكان ذلك حدثاً مثيراً في جميع إرجاء البلاد.

لم يكن لايارد الأول في ميدان التنقيب الواسع النطاق في العراق فقد كان له سلف بارز تمثل في القنصل الفرنسي پول بوتا الذي بدأ تنقيباته في ١٨٤٢. وقد جاء في وصف احد

معاصري بوتا له " انه عالم ولكنه قنصل رديء" كان بوتا صديقاً طيباً للايارد الذي دفعه قبل ١٨٤٥ حافز عظيم نحو البحث الاثاري حين أذن له بوتا بالاطلاع على تقاريره الخاصة في إثناء مرورهما باسطنبول.

حين كان بوتا، كما كان لايارد، يقوم بتنقيبات اثارية ثانوية في أماكن متعددة، كان موقع عمله الرئيس في خرسباد، شمال شرق الموصل، كان كلا هذين الرائدين العظيمين ينقب أيضا في أوقات مختلفة في قويونجك، موقع نينوى نفسه، وقد ثَبُت في النهاية إن المواقع الثلاثة ـ خرسباد وقويونجك ونمرود هي خرائب المدن الرئيسة في حقبة العظمة الأشورية بين القرن التاسع والسابع قبل الميلاد. وقد ألقت المكتشفات الجديدة أضواء جانبية على شيء من التاريخ التوراتي، وعلى الطبيعة المذهلة لكثير من اللُقى الأولى نفسها ـ الثيران والأسود المجنحة (٤) التي تُعد من المعالم المثيرة للإعجاب في المتحف البريطاني ومتحف اللوفر، فضلاً عن المشاهد الحيوية المنقوشة في نحت محفور على أفاريز (اطناف) كلسية حظيت على الفور باهتمام الجمهور في بريطانيا وفرنسا، وان جميع اللُقى الرئيسية الاولى التي جاءت من آشور هي التي أدت إلى العلم الذي سُمي "علم الأشوريات " وهو اسم ما يزال باقياً على الرغم

٤ــ أسد مجنح آشوري.

٥ــ مسلة النسور.

٦ ــ ٧ رقيم طيني وظرفه.

من إن أشور لا تشكل فيه إلا جزءاً فقط وليس أهم جزء من الحضارة المعنية كلها.

إن الثيران المجنحة والأفاريز الكلسية، على الرغم من كونها مثيرة للإعجاب، مذهلة، لاتهبنا نظرة فاحصة في صميم حضارة الشعب الذي خلَف هذه الأشياء، ولحسن الحظ فانه قد جاء مع هذه الأشياء كتابات منقوشة إما على الثيران أو الأسود أو الأفاريز أو الاختام الاسطوانية أو رُقم الطين بحروف غير معروفة متكونة من خطوط وتدية (مسمارية) الشكل. وقد فتح حل هذه الكتابة المسمارية للعالم الحديث مغاليق جميع الفكر والحياة البابلية والأشورية.

نشرت كتابات مسمارية قليلة قبل تحريات بوتا ولايارد بمدة طويلة، وأعطى العمل على هذه الكتابات المفتاح الذي فتح المادة الجديدة.

توجد في خرائب قصور ملوك الفرس القديمة، ولا سيما في پرسيپولس، الكثير من الكتابات المسمارية الواضحة على الحجر.

استنسخ عدد من الرحالة أجزاءً من هذه الكتابات بوصفها تُحفاً نادرة، ولكن حتى أواخر القرن الثامن عشر حين تمت نسخ أكمل بعناية أكثر، لوحظ إن هذه الكتابات من القصور

الفارسية تحتوي على ثلاثة انظمة مختلفة من الكتابة (٨)، وان احدها هو النظام الذي وجد مكتوباً على طابوق من منطقة بابل.

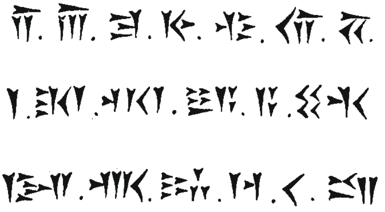

توجد في الأساس ثلاث طرق مختلفة يمكن بها كتابة اللغات (المنطوقة). أكثرها بدائية جعل علامة

٨ - الكتابات الثلاث من برسيبولس.

واحدة (تسمى ايديوگرام وهي رمز أو علامة تمثل فكرة أو شيئاً، أو لوگوگرام وهي رمز أو علامة تمثل كلمة كاملة) لكل كلمة أو فكرة. وإذا كان لهذا النظام إن ينتشر استعماله فمن الواضح انه يتطلب مئات بل آلاف العلامات المتميزة.

والكتابة الصينية أفضل مَثل على ذلك. نظام الكتابة الآخر هو اخذ علامة منفصلة، ليس لكل كلمة، بل لكل مقطع من الكلمة. وبما إن عدد المقاطع المحتملة في اللغة الواحدة اقل كثيراً من عدد الكلمات المحتملة، فان مثل هذا النظام يتطلب علامات اقل كثيراً. كان عدد العلامات المقطعية المطلوبة لا يقل عن مائة في لغات الشرق الأدنى التي تستعمل هذا النظام

للكتابة. إما الطريقة الأساسية الثالثة للكتابة فهي التي نستعملها اليوم، وهي النظام الالفبائي، الذي يعطي لكل صوت رئيس يحدث في اللغة علامة منفصلة، ويختلف عدد الرموز قليلاً من الفبائية إلى أخرى على وفق الأصوات الحاصلة في تلك اللغة والكفاءة التي تميز بها تلك الأصوات في الكتابة، ولكن عدد الرموز الالفبائية يكاد دائماً يتراوح بين عشرين وخمسين.

أما قضية الخطوط الثلاثة من پرسيبولس (عاصمة الاخمينيين قرب دزفول الحالية)، فقد اثبت احدهما إن له اقل من خمسين علامة مختلفة. ولذا فانه يمكن أن يعد الفبائياً. بعض النصوص التي عدت بهذا الفبائية كانت كتابات منقوشة فوق رؤوس الإشكال في النحت التي تمثل ملوكاً بنحو واضح، ويوحي ذلك أن مثل هذه الكتابات يمكن أن تحتوي على اسم ملكي أو لقب. احد المفاتيح لفك الشفرة هو ما كان معروفاً من المصادر الفارسية المتأخرة إن الشكل الاعتيادي للقب ملوك فارس هو: فلان الفلاني، الملك العظيم، ملك ملوك، "ابن فلان الفلاني". قام بالعمل عالم ألماني، هو جي أف گروتفيند، مسترشداً بهذه المعطيات فاستطاع في ١٨٠٢ أن يحرز تقدماً ملموساً في فك رموز الخط المسماري الالفبائي، معيناً قيماً صحيحة لثلث حروف الالفباء تقريباً. اشتغل بين ١٨٠٢و ١٧٣٠

عدد من العلماء على تلك الكتابة بدرجات متفاوتة من النجـــاح، حتى شجر في السنوات التالية جدل عنيف حول مـــن يـــستحق الشرف الأسمى عن فك الرموز نهائياً. لاريب إن عـــدة علمـــاء اشتركوا في ذلك ولكن من الجلي ان جزءاً مهما من ذلك الفضل يعزى إلى شاب انكليزي أخر هو هنزي كريسويك رولنسن.

٩ـ صخرة بسيتون.

كان رولنسن عالماً كلاسيكياً وشاباً ممتازاً فـــي الرياضـــة البدنية، اشغل وظيفة في شركة الهند الشرقية، وفي سنة ١٨٣٥ حين كان في الخامسة والعشرين عُينَّ للقيام بواجبات في إيـــران في مركز يبعد نحو عشرين ميلاً من صخرة بسيتون "بهـــستون"

الشهيرة (قرب كرمنشاه الحالية) تقع صــخرة بهــستون علــى الطريق الرئيس القديم من بابل إلى اكبتانــا (همــدان الحاليــة، عاصمة الميديين القديمة)، ويبلغ ارتفاعها ١٧٠٠ قــدم تقريبــاً، صنع الملك داريوس الأول (٥٢٢ـ٤٨٦ق.م) ملك فارس القديم على ارتفاع ٣٠٠ قدم منها أثرا منقوشاً يظهر فيه متغلباً علــى أعدائه (٩). وكان مع المنحوتات كتابات منقوشة بلغات ثــلاث (كما تُعرف الآن) هي: الفارسية القديمة والعيلامية والاكدية، في ثلاث خطوط ذكرت تواً. وعلى الرغم من أن كثيراً من النــاس شاهدوا المنحوتات والكتابات من الأسفل، فان هذه التفــصيلات عن اللغات التي كُتبت بها لم تكن معروفة بطبيعة الحال لأحــد حين وصل رولنسن إلى فارس. كان رولنسن مهتماً بمسألة حــل الرموز ورأى في كتابات بهستون، وهي أطول كثيراً مما كــان متيسراً لدى العلماء حتى ذلك الحين رأى مــادة أكثــر تبــشيرا ًبالنجاح لحل كامل. فتسلق جانب الجبل العمودي إلى حيد (ناتئ) ضيق مشرف على هاوية تزيد على مائة قدم، واســتطاع فــي غضون عدة زيارات في إثناء ١٨٣٦و١٨٣٧ إن يستنسخ نحــو (٢٠٠) سطر من الكتابة الجديرة بالاهتمام (التي عُرف ألان أنها باللغة المسماة الفارسية القديمة) وقد كُتبت بخط الفبائي. وتوصل رولنسن في ذلك الحين إلى معرفة بعض الحروف فــي الفبــاء

الفارسية القديمة بالطريقة نفسها التي اتبعها گروتنفند. استطاع رولنسن بالمادة الجديدة إن يحل فعلياً هذه الالفباء بكاملها، واستطاع في ١٨٣٩ بمعرفته لغات تالية لها علاقة بالفارسية القديمة أن يقدم موجزاً جوهرياً دقيقاً لمعنى المائتي سطر جميعاً. وبهذا فقد حُلت رموز الكتابة واللغة الفارسية القديمة قبل سنة ١٨٤٠.

وظلت المهمة الاصعب في حل رموز الكتابة واللغة للترجمتين في النص الثلاثي اللغة. وقد أحرز رولنسن وآخرون في ١٨٤٦ تقدماً جوهرياً في الكتابة العيلامية ولكن ظل ما يعرف عن الكتابة الاكدية قليلاً. ويرجع الفضل في النجاح الأساسي المبكر في حل رموز الحروف الاكدية المسمارية إلى كاهن أيرلندي اسمه ادوارد هنكس، ولكن الآخرين ومنهم رولنسن لم يخلفوا كثيراً، وصار من الممكن في ١٨٥٠ لهؤلاء العلماء إن ينجحوا في إعطاء المعنى العام للنصوص الاكدية ذات الطبيعة التاريخية. وعلى الرغم من ذلك فان العالم المثقف لم يكن مقتنعاً قناعة كاملة، فأجري، لهذا السبب اختبار في ١٨٥٦ــ١٨٥٧ لأربعة من العلماء البارزين هنكس ورولنسن واوبرت وفوكس تالبوت لإعداد ترجمات مستقلة لنص طويل اكتشف حديثاً. وحين وجُد إن نتيجة الأربعة كانت متفقة اتفاقاً

جوهرياً فلم يعد مزيد من الشك في حل رموز الكتابـــة واللغـــة الاكدية.

لم تكن الصعوبة العظيمة في حل رموز الاكديـــة كامنـــة بالدرجة الأولى في اللغة نفسها بل في طريقة كتابتها. كان الخط في شكله اللاحق خليطاً من نظامين للكتابة ذُكرا أنفا، فقد كانـــت بعض العلامات رمزية والأخرى مقطعية، وكان التعقيد أكثر من ذلك لكون بعض العلامات يمكن استعمالها إما رمزياً أو مقطعياً، بينما بعض العلامات المقطعية يمكن أن تدل على عدة مقـــاطع مختلفة تماماً في النص نفسه. فهذه العلامة مثلاً يمكن (في زمن واحد وفي نص واحد) إن تكون إما علامة رمزيـــة "للنهـــار" أو مقطعاً يلفـــظ (أود) أو (تـــو) أو (تـــام) أو (پار) أو (لـــيخ) أو (خيش). ولتعقيد الأمور أكثر يمكن إن تمثـــل عـــدة علامـــات مختلفة المقطع نفسه: فأما أو يمكـــن أن تكـــون للمقطع (أو) في مواضع معينة في الكلمة.

وبهذا لم يكن فك رموز الاكدية في البدء امراً سهلاً. ولكـــن ما إن أنجز ذلك حتى كان مزيد من التقدم محـــض مـــسألة فـــي المثابرة والوقت. وسرعان ما لوحظ إن نظام الكتابة لم يكـــن قـــد اخترع لأجل الاكدية وكما توقع بعض الرواد فقد وجد العلماء بين الكتابات المسمارية من بابل نصوصاً بلغة أخرى مختلفة كاختلاف

التركية عن الانكليزية، تُعرف هذه اللغة اليوم بالسومرية (بأسم الجنس الذي تكلمها) وقد أصبحت مفهومه بعد الربع الأول من القرن العشرين، وما يزال كثير من الجدل دائراً حول تفصيلات في تأويل النصوص السومرية، في الوقت الذي أصبح اغلب النصوص الاكدية مفهوماً ألان فهماً جيداً.

في الوقت الذي نقش السومريون والبابليون والآشوريون القدماء أحيانا كتابات على نُصب حجرية كانت مادة الكتابة الاعتيادية تتكون من كتل من الطين، أكثرها شيوعاً بحجم يمكن مسكه بالكف ولكن كانت أحيانا اكبر حجماً (٤٣). وقد ادعى نقاد لايارد انه في البدء عدَ مثل هذه القطع الطينية المكتوبة أنها مجرد فخار مزخرف بنحو غريب ولكنه عرف دون ريب ما هي قبل إن يغادر نمرود في حزيران ١٨٤٧، بعد ذلك وجد لايارد ومن جاء بعده في موقع نينوى بقايا عدة مكتبات من الرُقم الطينية المسمارية التي جمعها ملوك آشوريون ونقلها لايارد والآخرون إلى المتحف البريطاني. وما تزال ٢٥,٠٠٠ قطعه المعنية تُشكل أهم مجموعة فردية معروفة في المادة المسمارية: أنها في الحقيقة شاملة جداً بحيث يمكن لبعض علماء الأشوريات إن يقوموا بمساهمات مهمة في البحث قاصرين اهتمامهم على هذه المجموعة الخاصة (٦، ٧).

تقاعد لايارد من الآثار في ١٨٥١ ودخل السياسة غيـــران عمله في موقع نينوى وغيره لمصلحة المتحف البريطاني واصـــله آخرون. كان الفرنسيون ناشطين في التنقيب منذ البداية، وشرعت أميركا وألمانيا بتنقيبات رئيسة في أواخر ثمانينيات القرن التاســـع عشر (١٨٨٠). وحذت دول كثيرة أخرى حذوهم وأصـــبح علـــم الأشوريات، في معالمه الآثارية وفي دراسة المـــادة المـــسمارية، حقلاً للتعاون الدولي في الواقع وتكاد لا تمر سنة لايوجد فيها ثلاث أو أربع حملات تنقيب في العراق من أقطار مختلفة، وفي " اللقاء العالمي للأشوريات" الذي يعقد سنوياً قد يصادف المرء منـــدوبين من بريطانيا وأميركا وفرنسا وألمانيـــا وچيكوســـلوفاكيا (ســـابقا) ويوغوسلافيا وروسيا والدنيمارك وغيرهم تحدوهم جميعاً الرغبـــة في تعميق معرفتهم بحضارة بلاد ما بين النهرين القديمة.

بلاد بابل
وأشور وأجناسها البشرية

كانت بلاد بابل وأشور القديمة تشمل على وجه التقريـــب المنطقة التي تعرف الآن بالعراق، على الرغم مـــن إن بعـــض الأماكن المهمة في الحضارة القديمة تقع في تركيـــا وســـوريا.

العراق بلد يعتمد جزئياً في وجوده المادي على نهريه العظيمين، دجلة والفرات، ولولا هذين النهرين لكان ثلثا الـــبلاد صـــحراء قاحلة، وهما اللذان كوَّنا بما تركاه من طمي غرينـــي، المنطقـــة كلها وجعلاها سهلاً رسوبياً عظيماً يمتد مـــن نحـــو ١٠٠ ميـــل شمال بغداد إلى الخليج العربي. يمكن إن تكـــون هـــذه التربـــة الغرينية تحت تأثير الشمس والري المضبوط ذات خصوبة عالية مذهلة، وفي هذا السهل الرســـوبي نـــشأت الحـــضارة القديمـــة وازدهرت. والى شرق السهل الرسوبي وشماله ترتفـــع الأرض إلى سلسلة من التلال السفحية وتنتهي إلى جبال يبلـــغ ارتفاعهـــا ١٠,٠٠٠ قدم على حدود إيران وتركيا. والى غـــرب الفـــرات تندمج الأرض في بادية الشام والصحراء العربية.

كانت بابل في الأزمنة القديمة في القسم الجنوبي من هـــذه الأرض، من منطقة بغداد تقريباً، وبلاد آشور في القسم الشمالي. ويشار أحيانا إلى ذلك كله باسم "ميســـبتيميا " مـــن الإغريقيـــة بمعنى "بين النهرين" على الـــرغم مـــن إن الإغريـــق أنفـــسهم استعملوا هذا المصطلح لمنطقة مختلفة.

تبدأ قصة حضارة بلاد ما بين النهـــرين، ومعهـــا قـــصة حضارتنا الخاصة، قبل اكثر من ٥٠٠٠ سنة بقليل مـــن اهـــوار جنوب العراق الحارة. وقد جاء شعب غريب، لايعرف أصـــله

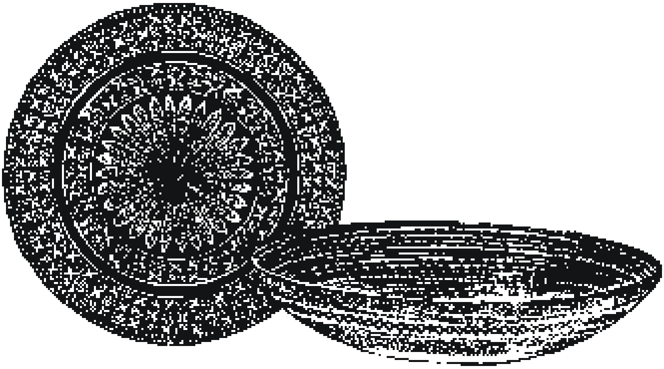

١٠ــ آنية من الحقبة قبل السومرية

بالضبط (ولسنا متأكدين أجاء براً ام بحراً) من مكان ما في الشرق أو الشمال الشرقي، ليستقر في المنطقة المحيطة برأس الخليج العربي. هذه المنطقة ضعيفة في المواد الأساسية للوجود الحضاري، كالخشب الصلب والحجر وخامات المعادن، غير أنها غنية في ثلاثة أشياء أخرى، وهي ضوء الشمس والماء والطين. من الطين بنى السومريون حضارتهم، وعلى الطين بشكل رُقم كتبوا فاستطعنا أن نرى الماضي إلى بداية ٥٠٠٠ سنة تقريباً التي تفصلنا عن الاستيطان السومري الأصلي.

لم يكن جنوب العراق خالياً حين وصل السومريون. فقد وجدت قرى مزدهرة، أصبح بعضها أساس مدن سومرية

لاحقة. ويبين علم الآثار إن القادمين الجدد تبنوا كثيراً من تقنيات بناء الشعب الموجود قبلهم وزراعتهم وريهم، ولو أنهم ادخلوا أو ابتكروا وسائل وتقنيات لم تكن موجودة سابقاً في البلاد. وقد اعتقد بعضهم ان السومريين وصلوا البلاد رعاة متنقلين محاربين وفرضوا انفسهم على الناس المستقرين ليُكونوا طبقة حاكمة وظن علماء آخرون إن السومريين كانوا فلاحين قرويين ولعل تغيرات مناخية أخرجتهم من موطنهم في أواسط أسيا، ولكن الدليل ضعيف وغامض وليس كافياً في الوقت الحاضر لكي نتخذ قراراً.

كان الشكل المميز الذي نما فيه المجتمع السومري، منذ أوائل الإلف الثالث قبل الميلاد هو المدينة السومرية المسورة في وسط دولة مدينة صغيرة ـ وعدد من القرى التابعة في الريف المحيط بها. ويمكن التأكيد أن أساس المدينة السومرية كان زراعياً وليس صناعياً وكانت أهم سمتين بارزتين في المدينة السومرية هي نظام الري ومعبدها الرئيس المبني على دكة، تطور هذا المعبد بمرور الزمن ليصبح البرج المدرج المعروف بالزقورة (ص١٨٥). وقد يكون معبد المدينة فخماً، على أسس حجرية ولكن اغلب ساكني المدينة يعيشون في أكواخ من طين صغيرة.

كانت المدينة نظرياً، ضيعة الإله المحلي الذي كان ممثله البشري الرئيس يعرف بـ"أين" ويمكن إن يكون هذا الموظف رجلاً أو امرأة. وكانت السيطرة على دولة المدينة في الأصل بأيدي جميع المواطنين الأحرار الذين يتخذون القرارات بشأن السياسة العليا في مجلس عام. ولكن توجد دائماً بعض النشاطات التي تتطلب اتخاذ قرارات فورية لذلك فان المواطنين يجتمعون ليعينوا رجلاً يسمى "أينسي" ليوجه وينسق العمليات الزراعية، إما في أوقات الأزمات فأنهم يختارون ملكاً (بالسومرية "لوگال" ويعني حرفياً "الرجل الكبير") ليكون قائداً عسكرياً(٥). وعلى الرغم من أن كلاً من "أينسي" و"لوگال" كان في الأصل منتخباً، غير انه ما إن يُعين حتى يميل إلى إن يكون منصبه دائمياً أو وراثياً، وكذلك بالنسبة إلى مختلف المراكز القيادية في دولة المدينة تميل إلى أن تكون في يد شخص واحد. لذا فان گلگامش أوروك الشهير(ص٩٦) كان "أين" و"لوگال" و"أينسي". ونتيجة لذلك فان المنظمة الديمقراطية الأصيلة كانت تفسح المجال إلى نظام حكام ومحكومين.

كان يعتقد حتى وقت قريب أن المعبد في أوائل الحقبة السومرية يملك جميع ارض دولة المدينة، ولكن تبين الآن إن حصة المعبد ربما بلغت ما لايزيد عن ثمن المجموع، وكانت

بقية الأرض في الأصل ملكاً للعوائل والعشائر مجتمعة ولا يمكن بيعها إلا بموافقة جميع الأعضاء البارزين في العائلة أو العشيرة، وكان مشترو مثل هذه الأرض من أبناء الطبقة الحاكمة أو فئة النبلاء الذين سيأتون إلى الحكم، ويملكون الأرض ملكاً خاصاً فضلاً عن أملاكهم العائلية. ويعمل على هذه الأرض الناس الأحرار الفقراء الذين لا يملكون أرضا. بهذه الوسيلة تطور نظام اجتماعي يتكون من ثلاث طبقات رئيسة، هم النبلاء والأحرار العاديون والأحرار التابعون الذين يطلق عليهم عموماً "الموالي". وثمة طبقة رابعة تتكون من العبيد الذين كانوا بالدرجة الاولى أسرى حرب.

ذكرنا إن السومريين لم يكونوا أول من سكن ما تسمى بلاد بابل ولعل في من سبقهم من جماعة العروبيين (الساميين). وإذا كان الأمر في الحقيقة كذلك، فان هذا العنصر العروبي يمثل المرحلة الأولى لحركة شعوب استمرت خلال حقب التاريخ.

كان العروبيون القدماء شعباً موطنهم الأصلي، على قدر ما نعرف في الوقت الحاضر، داخل الجزيرة العربية. وكانت الجزيرة منذ نهاية العصر الجليدي الأخير في نحو ٨٠٠٠ ق.م إلى الوقت الحاضر (شأنها في ذلك شأن كثير من الشرق

الأدنى) تعاني من تعرٍ شديد في التربة، كـــان مـــن نتيجتـــه أن اتسعت الرقعة الصحراوية، وأصبح عدد السكان الذين تستوعبهم الأرض يتقدمون باستمرار وصار تدفق السكان، خـــلال حقـــب التاريخ، إلى الخارج للاستقرار عادة في عوائل مسالمة، ونـــادراً ما يكون في مجموعة حربية كبيرة، على إطـــراف الـــصحراء الكبرى الأكثر خصباً.

احد هذه الأسباب التي تدعونا إلى هذا التخمـــين احتمـــال وجود عروبيين في جنوب العراق عند وصول الـــسومريين أول مرة هو أن بعض الكتابات السومرية الأولى تحتوي على كلمات لا ريب أنها استعيرت من كلام عروبي. ولسوء الحظ فان مثـــل هذا الدليل ليس حاسماً لأننا لانعرف هل كانت حقبـــة الاتـــصال بين السومريين والعـــروبيين التـــي نتجـــت عنهـــا مثـــل هـــذه الاستعارات بضع سنين أم قرون.

إن أقدم موجة من الشعوب العروبية إلى العراق بدأت في الربع الثاني من الإلف الثالث (أي بعد سنة ٢٧٥٠ ق.م) ولـــدينا من هذه الحقبة دليل على جماعة نعرفها بأسم الاكـــديين انتقلـــت إلى شمال بابل من منطقة جبل سنجار في شرق سوريا (شـــمال العراق).

بلغت قوة العنصر العروبي المتنامية ذروتها بوصول سلالة أكدية إلى السلطة في شمال بلاد بابل، وكان لآخر ملك في كيش رئيس وزراء، نعرفه بالأسم العروبي شَّروم ـ كين أو سرگون (سرجون) الذي يعني "الملك الصادق"، ولا يمكن إن يكون هذا هو اسمه الأصلي. وقد أسس سرجون مدينة اسمها أكد (لايُعرف موقعها بالضبط)، وحين أطاح حاكم سومري من أقصى الجنوب بملك كيش، تولى سرجون زمام الحكم واحكم السيطرة على جميع البلاد التي عرفت فيما بعد ببلاد بابل(٢٣٧١ ق.م). وحكم خلفاء سرجون أكثر من قرن (يقول طه باقر حـ ١ ص١٢٢ أنهم حكموا زهاء قرنين "٢٣٥٠ـ٢٢١٠"ق. م) وصار يشار إلى هذه السلالة بسلالة أكد.

وأخيرا وسّع سرجون فتوحاته إلى أعالي الفرات في شمال سوريا ولعله تغلغل في أسيا الصغرى. وفتح أيضا عيلام إلى شرق بلاد بابل واحكم السيطرة على شمال العراق، المنطقة التي عرفت فيما بعد بأشور. وقد وجد في إحدى مدن بلاد آشور قناع برونزي لعله يمثل سرجون نفسه (١٣) .

أدت سيطرة سرجون الاقتصادية والسياسية على هذه المنطقة الواسعة التي لم يسبق لها مثيل، أدت إلى ارتفاع ملحوظ

في مستوى المعيشة في بلاد بابل حتى ظلت هذه الحقبــة تُــذكر في التراث بأنها عصر ذهبي.

الحاكم العظيم الأخر من سلالة أكد هــو نــرام ــ ســين الحفيد الرابع لسرجون. وعلى وفق ما ورد في التــراث الــذي يؤيد الدليل الاثاري إلى حد ما، فان نرام ــ سين ســيطر علــى إمبراطورية تمتد من أواسط أسيا الصغرى إلى الطرف الجنوبي للخليج العربي. وأخيرا انهارت هذه السلالة أمام ضغوط موحدة من شعوب من الجبال الــشمالية والشرقية علــى الــرغم مــن العمليات الحربية التي قام بهــا نرام ــ سين. كانت المنجــزات التي قامت بها السلالة الاكديــة ذات أهمية باقية على الرغم من قصر مدتها النسبي (٢٣٧١ــــ ٢٢٣٠ ق.م).

وكــان أهمهــا إدخــال طرائق إدارية جديدة، ولاسيما

١١ ــ نرام سين متغلبا على أعدائه.

المحاولة في حكومة مركزية من مدينة واحدة. وقُدر لـــذلك أن تكون له نتائج بعيدة المدى في المستقبل.

بانهيار حكومة أكد المركزية احتل شمال بلاد بابل شعب جبلي يدعى الـــگوتيين، وهم جنس همجي نُظر اليه بمقت شديد